الطب عند العرب

عبد السلام بن عبد الحليم تنبكجي

2020-04-16

علم التاريخ من أجلِّ العلوم نفعاً، وأرفعها شأناً، وأصفاها مورداً، فهو المرآة لحوادث الزمان، والمشكاة لاستنارة الأذهان، والمنهاج لاهتداء الخلف بهدي السلف ...والطب كما قيل حفظ صحة وبرء مرض ...وهو خير ما اشتغل به الإنسان. وبوجود الصحة يتهيأ ما يريده من أمور الدنيا ولذاتها، من أكل وشرب واستمتاع وحسن معاشرة، وبها أيضاً يتحصل ثواب الآخرة المُستجلب بالصوم والصلاة وما أشبههما من الأعمال الصالحة ...والمنتمي إليه يسمى طبيباً.

وهو من صفات الله جلّت قدرته ...فيجب على من تسمى به أن يكون: رحيماً، كريماً، تقياً، نقياً، عفيفاً، نظيفاً، مؤتمناً، ديناً. حافظاً للأسرار، بعيداً عن الأشرار، محباً للأخيار ليكون اسمه غير مستعار.

والطب من جملة العلوم التي اشتهر بها الكلدان كهنة بابل، وهم أول من بحث في علاج الأمراض، فكانوا يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق حتى إذا مرَّ بهم أحدٌ مما أصيب بذلك الداء، فيعلمهم بسبب شفائه، وكيفية توصله إليه، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها على جدران الهياكل، ولذلك كان كهنتهم من خيرة أطبائهم. وعن الكلدان أخذته سائر الأمم القديمة، وفي جملتها العرب، ولذا نراه متشابهاً عند أكثر الأمم في مصر وفينيقيا وآشور. ثم تناوله اليونان فأتقنوه أحكاماً وإحكاماً، ورتبوا أبوابه وفصوله، وعنهم أخذته الرومان والفرس. ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول، فقد اقتبسوا شيئاً من علاجاتها أضافوه إلى ما حصّلوه من الكلدان وإلى ما استنبطوه هم أنفسهم بالاختبار.

وقد ذكر المؤرخون أن أول من تعاطى الطب من العرب بعد الكهنة هم جماعة ممن خالطوا الروم والفرس في القرن السادس الميلادي، وقبل ظهور الإسلام بقليل، وأخذوا العلم عنهم. كان العرب في صدر الإسلام لا يهتمون بشيء من العلوم إلا بلغتهم ومعرفة قواعد شريعتهم حاشا علم الطب فإنه كان موجوداً عند أفراداً منهم غير منكر عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليه. وزاد شغفهم به والسعي وراء إدراك كنهه لما كان عندهم من الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث عليه حيث يقول: "يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحداً وهو الهرم".

وكان الرسول العربي صلى الله عليه وسلم طبيباً، عالماً بطرق الوقاية والعلاج، ومن تعاليمه وإرشاداته:

- الشفاء في ثلاثة شربة عسل وشرطة محجم وكية نار ...
- في الحبة السوداء (الشونيز) شفاء من كل داء إلا السام ...
- إن التلبينة (مزيج من النخالة واللبن والعسل) تجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن ...
- الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ...
- الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء ...
- إن خير أكحالكم الإثمد يجلو البصر وينبت الشعر ...
- بخروا بيوتكم باللبان والمر والصعتر ...
- عليكم بزيت الزيتون، كلوه وادّهنوا به فإنه ينفع من البواسير ...
- كلوا الزيت وادهنوا به فإن فيه شفاء من سبعين داء منها الجذام ...
- نعم الطعام الزبيب يشد العصب ويذهب الوصب ويطفئ الغضب ويطيب النكهة ويذهب البلغم ويصفي اللون ...
- كلوا التين فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس ...
- خير الدواء اللدود والسعوط والكي والحجامة والعلق ...
- خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري ...
- عليكم بالشفاءين العسل والقرآن ...
- إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها ...

ويقول محمد راغب الطباخ: فإذا كنت واسع الاطلاع في صناعة الطبابة، آخذاً منها بحظ وافر، ومن الواقفين على أقوال أطباء الغرب ونظرياتهم فيها، تجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إلى هذه الأقوال قبل أربعة عشر قرناً، وأتى بما يبهر العقول، وتعجز عن دركه البصائر المستنيرة. ولا غرابة في ذلك لأنها خرجت من قلب تلألأت فيه أنوار النبوة، وتفجرت منه ينابيع الحكمة، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فينم عن اعتنائه بعلم الطب قوله المشهور: "العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان"

وقوله: العلم ثلاثة الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان.

وقوله: العلوم أربعة الفقه للأديان والطب للأبدان والنحو للسان والنجوم لمعرفة الأزمان.

وله رضي الله عنه كلمات قيّمة في جوامع علم الأبدان كقوله: اكسروا حر الحمى بالبنفسج والماء البارد.

وقوله: لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء ...

وقوله لابنه الحسن: يا بني ألا أعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب؟ فقال: بلى قال: لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه وجود المضغ وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء. فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب.

لما انتشر الإسلام، واطمأن المسلمون إلى مدائن الأرض التي فتحوها، اتجهوا إلى العلوم والمعارف فعنوا بالطب عناية فائقة، واستوحوا كتب من سبقهم من اليونان وغيرهم، ثم عدلوها، وصححوها، وأضافوا إليها أبواباً جديدة لم يسبقهم إليها أحد، فتقدم الطب على أيديهم تقدماً ظاهراً.

- وفرقوا بين الجدري والحصبة وهما مرضان كان يُظن أنهما مرض واحد.
- ووصفوا الالتهاب السحائي أي البرسام الحاد وميزوه عن سائر الأمراض الحادة المصحوبة بالهذيان.
- وعرفوا طب الأسنان وخلعها وحشوها ...
- كما عرفوا الجهاز العصبي وأدركوا منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن للحواس الظاهرة كالسمع والبصر واللمس والذوق مغارز في الدماغ ...
- وجعلوا من الجراحة علماً حقيقياً وفناً له أصول وقواعد
- وهم أول من استخدم المرقاة أو العاصبة لمنع النزيف الشرياني
- وأول من رأى بأن حدقة العين تكبر وتصغر تبعاً لنسبة دخول الضوء فيها
- وأول من استعمل المرقد أو البنج (وهو يشابه المخدر الحديث) في العمليات الجراحية ...
- وأول من ألف في الأقراباذين أو فن تحضير الأدوية ...
- والفحص الطبي عندهم لا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن ...
- كانوا يعالجون الرشوحات المائية أو الاستسقاء الزقي بحفر حفرة في الأرض عمقها ثلاث أقدام وطولها عشر وعرضها قدمان، ويوقدون في تلك الحفرة ناراً من الصباح إلى المساء. وفي المساء يخرجون النار منها، ويجعلون فيها تراباً، ثم يجردون المريض من ملابسه ويرقدونه بتلك الحفرة ويغطون جسمه بالتراب إلا رأسه، ويبقى كذلك إلى الصباح فيخرجونه وقد خرج الماء منه وأصبح صحيحاً...

- ويقول سعيد عبد الفتاح عاشور: والعلم الحديث مدين لهم باستعمال عقاقير وأدوية كثيرة كالراوند، والكافور، والصندل، والكحول، والقرنفل، وجوز الطيب، والمر، والعنبر وغيرها من الأشربة والمراهم ...

- ولم يكتفوا في علم النبات بكتب ديسقوريدس وجالينوس، بل أقبلوا على النبات نفسه يبحثون فيه، واجتازوا في ذلك حدود سوريا إلى بلاد اليونان، ومصر، والعجم وعادوا بمعارف جمة كانت ذخراً لهذا العلم المفيد.
- ويقول زكي علي: واشترطوا في الطبيب الإلمام بأصول الدين، والفلسفة، والفلك، والموسيقى علاوة على إلمامه بالعلوم الطبية. وأجروا للأطباء امتحاناً رسميا صعباً يحدد كفاءاتهم ...
- ووجهوا كثيراً من همتهم للمشافي فشيدوها في بغداد، ودمشق، والقاهرة وغيرها، وكانت أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب ...

ويقول جرجي زيدان: وكانت المشافي في الإسلام في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم وأمراضهم، وفيها لكل مرض قاعة أو قاعات خصوصية يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه ...

ويقول غوستاف لوبون: إن مشافي العرب كانت من الناحية الصحية أفضل من مشافي أوروبا اليوم بسعتها، وجمال موقعها، وكثرة مياهها، وانطلاق الهواء في أطرافها ...

ويقول خليل جمعة الطوال: ومن آثار العرب التي سبقوا إليها إنشاء المشافي لمداواة الأمراض العقلية.

ويعزى إليهم الفضل الأول في إقامة المشافي. وكان نظامها وتجهيزاتها في غاية من الكمال والإبداع. وكانت إمبراطوريتهم الواسعة تغص بآلاف من المشافي الراقية. وكان في طليطلة وحدها ما يزيد على أربعمائة مشفى ...

وكان بدمشق في ذلك العهد ثلاثة مشاف كبيرة أو خمسة منها: المشفى الذي بناه الوليد بن عبد الملك، والمشفى الذي شيده نور الدين محمود أبو الثنا بن زنكي آق سنقر، وعقد إدارته على أبي المجد بن أبي الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي وأطلق له جامكية وجراية، وكان أبو المجد يدور على المرضى فيتفقد أحوالهم ويكتب لكل مريض ما يلزمه من الدواء والتدبير، فينفذ كل ذلك بلا تأخير.

وذكر المؤرخون أن نور الدين طلب من طبيبه الخاص أن يختار أجمل بقعة وأجودها مناخاً ليقيم عليها المشفى، فاحتال الطبيب لها حيلة يحبذها ولا شك كل طبيب صحي في هذا الزمن، فقد عمد إلى غلمانه وأمرهم أن يعلقوا في

كل حي من أحياء دمشق قطعاً من اللحم وقال: خير بقعة ما لبث اللحم فيها أكثر من غيرها دون فساد. ولا تزال أبنيته قائمة إلى يومنا هذا.

وقد امتدحه ابن بطوطة وابن جبير اللذان اعتبروه أحد مفاخر الإسلام. وجاء في تقرير بول كولار: "المشفى النوري أعظم أبنية هذا العهد (العهد الزنكي) في المدينة القديمة". وهو أحد المشافي المشهورة جداً في العالم الإسلامي. وله باب ذو زخارف فنية غريبة قوامها المقرنصات ولهذا الباب مصراعان جميلان وفوقه جبهة كلاسيكية ووراءه دهليز مغطى بقبة صغيرة مضلعة منتفخة قائمة على عنق مخروطية فوقها المقرنصات المتعالية التي تشاهد أيضاً من خارج البناء. وفي صحن المشفى إيوانان جميلان وبعض بقايا الزخارف الخطية ونوافذ ذات زخارف جصية بديعة ...

وحذا أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب حذوه وبنى سنة 567 للهجرة مشفى في القاهرة.

والمشفى الذي أنشأه سيف الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن أبي الفوارس ابن موسك القيمري الكردي سنة 643 للهجرة، وكان مشهوراً. وعمل فيه من الأطباء: إبراهيم بن إسماعيل بن أبي القاسم، وابن مقداد القيسي...

- وأنشأوا المشافي النقالة ...

ويقول عمر فروخ: في هذا العصر الذي نتحدث عنه لم يكن في أوروبا شيء اسمه طب، فقد كانت المداواة الشائعة في شرقي أوروبا أن يأخذ المريض صورة مقدسة أو تمثالاً صغيراً مقدساً فيطحنه ثم يذيب طحينه في الماء ويشربه تداوياً به ...

أما في غربي أوروبا فقد كانت معرفتهم بالطب والمداواة من باب آخر. وكانوا إذا مرض أحدهم بالحمى أو خرج في جسمه بثرة خبيثة أو أصيب بالهزال ظن الأطباء أن شيطاناً قد دخل في جسمه. فكانوا في أول الأمر يقومون حوله بالرقص والعزف لاستدراج ذلك الشيطان إلى الخروج، فإن لم تنفع الحيلة انهالوا على المريض يضربونه لإخراج شيطانه منه بالقوة، فإن امتنع الشيطان من الخروج قتلوا المريض لئلا ينتشر مرضه بالعدوى ...

نعم لقد عني المسلمون بالطب عناية فائقة ونبغ منهم علماء كبار وجهابذة أفذاذ أنسوا من كان قبلهم، ومهدوا السبيل لمن جاء بعدهم، وعلى أساس نظرياتهم وابتكاراتهم ومنجزاتهم كانت النهضة الكبرى في القرن العشرين أي

الرابع عشر الهجري، فهم وحدهم آباء هذا العلم كما كانوا آباء غيره من العلوم في العصر الحديث. ونذكر منهم على سبيل المثال:

- **الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قصي الثقفي** من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل جنديسابور. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بالتطبب عنده. وقال مرة لسعد بن أبي وقاص: {ائت الحارث بن كلدة فهو رجل يتطبب} رواه أبو داود.

ومن أقواله:

- دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً ولا تشربه إلا من ضرورة فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله.
- من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وليخفف الرداء، وليقل الجماع ..

وجاء في إحدى وصاياه التي لا يرقى الشك إليها:

- لا تتزوجوا من النساء إلا شابة.
- ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها.
- ولا يتعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء.
- وعليكم بالنورة (حجر الكلس) في كل شهر فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرة، منبتة للحم.
- وإذا تغدى أحدكم فلينم على أثر غدائه وإذا تعشى فليخطط أربعين خطوة ....
- وقيل له: ما أفضل الدواء؟ قال: الأزم يريد قلة الأكل ...

- **وثياذوق الطبيب** اصطفاه الحجاج بن يوسف لصحبته، وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته، وكان كريم الخلق، لطيف العشرة، سريع الخاطر والجواب. عاش مائة وثلاثين سنة، ويبدو أنه كان متأثراً بالطب النبوي.

وذكر المؤرخون: أن الحجاج سأل جلساءه يوماً وكان من ضمن الحاضرين ثياذوق: أي الأشياء تُذهب الإعياء؟ فقال بعضهم: أكل التمر وقال آخرون: التمريخ أو التدليك بالمصطلح الحديث وقال ثياذوق: قضاء الحاجة فقال الحجاج: صدقت ...

وقال الحجاج له: أخبرنا بجوامع الطب؟ فقال لا تطأن من النساء إلا شابة، ولا تأكل من اللحمان إلا لحم فتي، وإذا تغديت فتمدى واستلق ولو على الأسنة، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا يدخل بطنك طعام حتى تستمرئ ما فيه، ولا تأو إلى فراشك حتى تأتي الخلاء فتنتفض، وكل الفاكهة في إقبالها واتركها في إدبارها ...

وسأله الحجاج: أي شيء دواء آكل الطين وقد اعتاد به؟ فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير، فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إليه أبداً ...

وله كتاب إيدال الأدوية أي مزجها ...

- **جبرائيل بن بخيتشوع** طبب الرشيد وكان حظياً عند الخلفاء. ويقال إن حظية الرشيد تمطت في بعض الأيام ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردها، ولم يفلح علاج الأطباء لها بالتمريخ والأدهان ...

فلما عرض الرشيد أمرها على الطبيب جبريل بن بخيتشوع قال جبريل: إن لم يسخط أمير المؤمنين علي فلها عندي حيلة، فقال الرشيد: وما هي؟

قال الطبيب: تخرج الجارية إلى ها هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريد وتتمهل علي ولا تسخط عاجلاً. فأمر الرشيد فخرجت. وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها وكأنه يريد أن يعريها أمام الجمع. فانزعجت الجارية وصدمت لذلك التصرف ودفعها الحياء إلى بسط يدها إلى أسفل لتمسك ذيلها وتستر جسدها. وعندئذ التفت الطبيب جبريل إلى الخليفة وقال: لقد برئت يا أمير المؤمنين ...

وللمأمون شعر فيه:

أفي طبك يا جبريل ما يشفي ذوي العلة؟

غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة

وله رسالة في المطعم والمشرب وغيرها

- **وماسويه الخوزي** وكان بصيراً بالعلاج، كثير التجارب ...
- **وأبو يعقوب يوحنا بن ماسويه** ولاه الرشيد بيت الحكمة، وقلده ترجمة الكتب اليونانية التي حصل عليها في حروبه بأنقرة وعمورية. وهو أول من كتب في أمراض العين، واعتنى بالتشريح اعتناء عظيماً. وهو أول من وضع فيه مؤلفاً أهداه إلى المعتصم بالله. وكان طويل الوجه، مرتفع قحف الرأس، عريض الجبين، أزرق العينين وكان معظماً، جليل القدر، خدم

هارون والأمين والمأمون والمعتصم والواثق وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل. وكانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضوره.

ومن كلامه وقد سئل عن الخير الذي لا شر معه فقال: شرب القليل من الشراب الصافي، ثم سئل عن الشر الذي لا خير فيه فقال: نكاح العجوز. وكان فكهاً ذا دعابة وظرف ...

- **وأبو زيد حنين بن إسحاق العبادي** من أئمة الترجمة في الإسلام. وكان يتقن العربية والفارسية والسريانية واليونانية ...

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. وقيل إنه رحل إلى أقصى البلاد بطلب الكتب التي قصد نقلها. وصار كتابه العشر مقالات في العين من أهم الكتب التي قامت عليها دراسة الطب في أوروبا في العصور الوسطى وقد ترجم إلى اللاتينية ...

ومن أقواله:

- من شرب على الريق وجامع على الجوع فقد جر الموت إلى نفسه بحبل ...
- من وضع علماً وصناعة كان كمن بنى داراً، ومن شرح وفسر ذلك الأصل كمن طين سطحها وجصصها. وليس من جصص داراً وكلسها كمن بناها ...
- وشهد بحقه لوكلير قال: إنه أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً. وربما كان أقوى شخصية أنجبتها المائة الثالثة للهجرة (التاسع الميلادي).

- **وأبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم الحراني** ولم يكن في زمنه من يماثله في صناعة الطب، وكان جيد النقل إلى العربي، حسن العبارة ...

- **وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي** وكان من الأطباء المذكورين ببغداد، ونقل كتباً كثيرة إلى العربية من كتب الطب وغيره

ومن أقواله: "الصبر قوة من قوى العقل وبحسب قوة العقل تكون قوة الصبر".

- **وأبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري** أدخله المتوكل في جملة ندمائه وقيل إن الرازي محمد بن زكريا أخذ عنه علم الطب.

ومن أقواله: "الطبيب الجاهل مستحث الموت".

- **وأبو بكر محمد بن زكريا بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد الرازي** دبر مشفى الري ثم مشفى بغداد زماناً، وكان يوصف بالبيمارستاني، وكان في ابتداء أمره يضرب العود ويغني ثم ترك العزف والغناء وأقبل على تعلم الطب والفلسفة فنال منهما كثيراً. وكان كبير الرأس، جليل الطلعة يتهيب الناس مجلسه لولا رطوبة كانت في عينيه. وكان كريماً، متفضلاً، رؤوفاً بالمرضى، دقيق الملاحظة، صحيح النظر. وهو في نظر مؤرخي الطب أعظم حكيم عربي. وكان خير من اقتفى آثار أبقراط وجالينوس. ومن أقواله:

الأطباء الأحداث الذين لا تجربة لهم قتالون

- مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب.
- ينبغي للطبيب أن يوهم المريض بالصحة، ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس.
- يجب على المريض أن يقتصر على طبيب يثق به، فخطأه في جنب صوابه يسير، لأن من استعمل أطباء كثيرين وقع في خطأ الجميع.

وله رسالة في الجدري والحصبة هي الأولى في نوعها. وقد وصف فيها هذين المرضين وعرف أعراضهما ومعالجتهما وطرق الوقاية منهما.

ويقول خليل باز: "جاء أبو بكر الرازي فعلم العرب التفكير المطلق والنظر الحر، فرسالته في الجدري والحصبة ظلت المرجع الأول والأخير في أوربا حتى القرن الثامن عشر". ويقول مصطفى الرافعي: "ولم ينقطع أطباء جامعة مونبلييه عن شرح نظرياته وتعليم كتبه إلا منذ أقل من قرن". تقول زيغريد هونكه: "وكان الرازي في سعي دائم وراء المعرفة عاباً منها كل ما يمكن عبه، باحثاً عنها في صفحات الكتب وعلى أسرة المرضى وفي التجارب الكيماوية، قاطعاً الآفاق من أجلها".

وقيل إن الرازي أصيب في أواخر أيامه بالماء الأزرق أو الساد فجاءه قداح ليقدح عينه فسأله الرازي: كم طبقة للعين؟ فقال: لا أعلم فقال: خير لي أن أبقى كفيفاً من أن يقدح عيني جاهل وصرفه، (راجع تاريخ مختصر الدول لابن العبري).

وكان الزهد طابعاً ملازماً له في مسكنه ومركبه ومأكله ولا عجب أن يموت تاركاً زوجاً صبوراً دون درهم أو ولد.

- **وأبو منصور الحسن بن نوح القمري** أستاذ ابن سينا ومعلمه وكان حسن المعالجة، جيد المداواة، وله كتاب حسن في الطب سماه (غنى ومنى) وهذا الكتاب لم يطبع.

- **وأبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا** اشتغل بالعلم الإلهي والطبيعيات، ثم درس الطب واستوعب الكتب المصنفة فيه، وعالج تأدباً لا تكسباً، وقصده فضلاء هذا العلم وكبراؤه يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة. ومن أهم مؤلفاته (القانون)، وفيه كل ما يتعلق بالطب أو يتصل بالمرض أو ينحو ناحية العلاج، ويتكون من خمسة أقسام. وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع فيها أكثر من ثلاثين مرة، وترجم كذلك إلى الإنكليزية. وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بجامعات أوربا ومعاهدها نحو ستة قرون تقريباً. ولم يقتصر ابن سينا في الطب على التقليد والمحاكاة، بل كانت له تجارب وآراء وتأملات.

جاء في جهار مقاله أن أميراً شاباً من البويهيين أصيب بمرض عصبي وامتنع عن تناول الطعام وتوهم أنه أصبح بقرة وأخذ يصرخ مطالباً بذبحه وإطعام لحمه للناس. فلما استنجد أهله بابن سينا لمعالجته قصد بيت الأمير ومعه عدد من أتباعه وتناول سكيناً حادة وأخذ يصيح أين هي البقرة التي تريدون ذبحها؟ ثم تقدم نحو الأمير وأخذ يتحسس جسمه ورقبته بالسكين وهو مستسلم للطبيب، ثم قال ابن سينا بصوت عال: هذه بقرة نحيفة هزيلة اعلفوها أولاً حتى تسمن، ومن الغريب أن الأمير بدأ بتناول الطعام، وكان ابن سينا يدس له فيه الدواء حتى تم له الشفاء. ويقول محمد خليل عبد الخالق: أود أن ألفت النظر إلى أن ابن سينا أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة الآن بالإنكلستوما وكذلك المرض الناشئ عنها المسمى بالرهقان أو مرض الإنكلستوما، وقد كان هذا الاكتشاف في كتابه القانون في الطب في الفصل الخاص بالديدان المعوية. ومن أقواله:

- "المستعد للشيء تكفيه أضعف أسبابه".
- "مسكنات الأوجاع: المشي الطويل والانشغال بما يُفرح".

ويقول حسين مؤنس: "لقد صنع ابن سينا ذكاءه بيده، وصاغه بسهر الليالي وجهاد الأيام ومغالبة الراحة والنوم والتحايل على السهر وإضناء الجسم فكان من ذلك كله هذا المجد العظيم".

وقيل كان الطب معدوماً فأوجده أبقراط وميتاً فأحياه جالينوس ومتفرقاً فجمعه الرازي وناقصاً فأكمله ابن سينا.

- **وأبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي** محيي الجراحة ومجددها، وقد شهد بنبوغه وتفوقه الجراح الفرنسي الكبير فورج وقال: "لا شك في أن الزهراوي أعظم جراح عربي، ويستحق كتابه في الجراحة أن يعد اللبنة الأولى في علم الجراحة". وكان ينصح تلاميذه ومريديه بالاتجاه إلى العمل الجراحي بعد تجريبهم الطرق والوسائل الأخرى.

- **وأبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر** وفي زمانه وصل القانون إلى المغرب فلم يعجبه وصار يقطعه ويصر به الأدوية ومن مؤلفاته كتاب الأغذية وهو أهمها.

- **وأبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة** وكان يطب أهل محلته وسائر معارفه بغير أجرة ولا جعالة، ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض، وله (منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان).

- **وأبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم ابن التلميذ** وكان ذكي الفؤاد، ثاقب الفكر، حلو الشمائل، خبيراً بأنواع العلة، ماهراً في تدبيرها.

- **وأبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان** وكان فكهاً، ظريفاً، عذب اللفظ، وافر الأدب، أبي النفس، شديد الإحساس، محباً للخير، غيوراً على العلماء يرى نفسه وإياهم أجزاء لجسم واحد، حسن الظن بالمتقدمين. وكانت بينه وبين معاصره ابن رضوان المصري مراسلات ومكاتبات ومناظرات حادة لا يؤلف أحدهما كتاباً إلا حمل الآخر عليه وانتقده وسفه رأيه.

يحكى أن شيخاً مسناً من أهالي حلب انحدر إلى ركبته مرض أزمنه ومنعه من المشي فجاءه أهله بابن بطلان الطبيب فنظر في مكان الألم وقال: أدخلوه إلى حمام ساخنة واتركوه بها حتى يغشاه الكرب ويضيق نفسه ولا تمكنوه من الخروج فإذا غلبكم على رأيكم وقام خارجاً بنفسه فخذوا ماء بارداً واضربوا به فخذه إلى ركبته فإنه يشفى. فأدخلوه إلى أحد الحمامات وفعلوا به ما قال فأراد أن يستريح وطلب ذلك منهم فقالوا له: ها هنا جماعة وعوراتهم مكشوفة فاصبر إلى أن نزيلهم من طريقك ودافعوه عن الخروج إلى أن زاد كربه ولم يطق الصبر فنهض قائماً فرموه بماء بارد كما أمرهم فاستمر ماشياً على عادته الأولى. فسئل ابن بطلان عن ذلك فقال: رأيت هذا شيخاً مسناً ولا يحتمل

مزاجه أن يسقى أدوية ويعمل له ضمادات فلربما يؤذيه ذلك ولم أر له دواء ألطف من هذا.

ومن خير وصاياه لابنه:

إياك أن تدخل طعاماً على طعام ولا تمش حتى تعيا ولا تجامع عجوزاً ولا تدخل حماماً على شبع وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء وعليك في كل أسبوع بقيئة ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم وإذا تغديت فامش أربعين خطوة ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه. وكتب هذه الوصايا العشر لمن أراد أن يعيش مائة سنة:

- كل قليلاً دون أن تشبع
- لا تشرب مع الأكل
- تغذ من الحبوب والنبات
- نم ثماني ساعات كل يوم
- ابتعد عن الهم
- روض جسمك في الخلاء وأكثر من النزهة
- تجنب الأماكن الحارة
- اغسل جسمك دائماً بالماء البارد
- اغسل يديك قبل الأكل وفمك بعده
- افتح نوافذ بيتك ليل نهار ولو في أيام البرد لا سيما وقت النوم.

- **وأبو العشائر هبة الله بن جميع** خدم صلاح الدين وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده عالي القدر نافذ الأمر وله كتاب (الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد) في أربع مقالات.

- **وأبو نصر أسعد بن إلياس بن جرجس ابن المطران** اقتنى أموالاً وافرة، وكان بارعاً ظريفاً نظيفاً عفيفاً خدم صلاح الدين الأيوبي وحظي في أيامه، وكان عنده رفيع المنزلة، عظيم الجاه، وكان متفوقاً في النحو وعلوم اللغة.

- **وأبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقي** درس كتب ديسقوريدس وجالينوس والرازي والزهراوي وابن وافد والغافقي وابن رومية واقتبس منها، ثم رحل إلى المغرب وسوريا واليونان ليرى النبات في موضعه ويتحقق صفاته بالعيان منكباً عن خطة التحدي والتقليد. ويقول بشارة زلزل: ومن طالع كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية تبين ما كان عليه من ذكاء النفس، وكثرة الحفظ، وصحة النقد، وسعة المعرفة. ويقول أسعد الحكيم: "وليس في الأدوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه".

- **وأبو محمد مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار** خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب فولاه رياسة الطب في مصر والشام، وفوض إليه النظر في أمر الكحالين واعتبارهم وامتحانهم، وكان يكتب لكل كحال منهم خطاً بما يحسنه من صناعة الكحل فلا يجوز له أن يتجاوزه إلى عمل آخر. وكان له مجلس عام لتدريس الطب يجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء يقرؤون عليه.

- **ورضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة ابن الحسن** نزيل دمشق من أهل الرحبة وكان كبير النفس عالي الهمة كثير التحقيق محباً للخير خدم صلاح الدين الأيوبي وأخاه أبا بكر بن أيوب.

- **وأبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحزم ابن النفيس** وكان في الطب إماماً لا يضاهى، أظهر الدورة الدموية الصغرى، وقال بأن الدم ينقى في الرئتين قبل سرفيتوس بثلاثة قرون.

- **وموفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة ابن أبي أصيبعة** صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي لولاه لما بقي من تاريخ الطب والأطباء أثر يذكر.

- **داود بن عمر الإنطاكي الضرير** نزيل القاهرة وبه ختم العلامة ووستنفلد كتابه في طبقات الأطباء له تذكرة الألباب في علم الطب وهو مطول.

- **وأمين بن فارس بن أنطون الريحاني** وله في الطب تعاليم كثيرة نذكر منها:

  - لا تعود نفسك الأدوية والمقويات
  - لا تلجأ في تخفيف ألم أو إزالة هم إلى المنبهات والمخدرات
  - لا تسترسل في الملذات ولا تطلق العنان للشهوات ...

- نم مبكراً وقم مبكراً
- عود نفسك التنفس تنفساً علمياً بضع دقائق كل يوم ...
- كل ما تشتهي نفسك ولا تأكل لتشبع
- صم أسبوعاً أو أسبوعين في أول الربيع ...
- اغتسل بالماء البارد صباح كل يوم ...
- عود نفسك الرياضة في العراء ...
- امش إلى عملك

يقول حسين أمين: "ولم تصل أوربا الغربية إلى ما وصلت إليه الآن من رقي في الطب وازدهار، إلا بعد أن بقيت زمناً طويلاً تعمل بنهج أطباء العرب، وتستعين بخبراتهم وآرائهم، وتستعمل طرائقهم في الكشف والمداواة" ...

وينبغي للطبيب الذي يستحق التقديم أن يكون معتدلاً في مزاجه، طاهراً في نفسه، متمسكاً بدينه، ملازماً لشرعته، وافر العقل، قوي الذكاء، حسن التصور، معروفاً بصدق اللهجة وأداء الأمانة، مهتماً بما يعنيه، محباً لاصطناع المعروف ....

يساوي ظاهره باطنه في أفعال الجميل، حسن الخلق، غير شره في كسب الحطام. ليس عنده حقد ولا حسد، صحيح الخط والعبارة، مواظباً على درسه ومطالعته، ناظراً في كتب المتقدمين، شفوقاً بالضعفاء والفقراء والمساكين، سابقاً إلى معالجتهم قبل معالجته الأغنياء، معروف الأستاذين والشيوخ، أخذ العلم عمن دونه ومن فوقه لقوله صلى الله عليه وسلم: {التمسوا الحكمة ولو من يد ذمي}، ولقوله صلى الله عليه وسلم: {الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها}.

ويكون عفيف الفرج والبطن والنظر، كتوماً للأسرار، قليل المزح والكلام أي لا يتكلم إلا بحسب الحاجة خوفاً من سقوط الحرمة، وأن يلبس ثياباً نظافاً وأجملها البياض، وليخاطب كل إنسان بما يليق بمقامه من غير إلحاح. ولقد حكي أن طبيباً دخل على بعض الكتّاب فسلم عليه، وابتدأ يسأله عن حاله فقال له: ماذا تجد؟ فقال: ألماً، قال: وما ألمك؟ قال: حمى قال: ومما حممت؟ قال: من عقر الخف، قال: ولم عقرك؟ قال: لبسته وكان ضيقاً، قال: ولم لبسته؟ قال: مضيت إلى حاجة. قال: وأين كانت الحاجة؟ قال: في الديوان العالي قال: ولمن هي؟ قال: للسلطان قال: وما هي؟ قال: لا أقول لك قال: لم لا تقول لي؟ قال: لأنك سقيع اللحية، كثير الفضول، قم اخرج عني إلى لعنة الله تعالى وأخرجه. (راجع مغني الأحباب للبنهاوي) ...

أما المريض فمن واجباته: